مارتن هايدغر والكشف عن الماهية الميتافزيقية للعلم الحديث

(في المعنى الاغريقي للرياضيات)

المؤلف المسؤول: الطالب الباحث جواد العيطور[1]

الأستاذ المشرف: د. محمد مزيان [2]

المغرب

ملخص:

يتحدث هذا المقال عن رصد هايدغر للماهية الميتافزيقية للعلم الحديث، حيث يركز على كشف الطموح الرياضي الذي يحضر في كتابي الفيلسوف الفرنسي "رونيه ديكارت"؛ كتاب "التأملات" وكتاب "القواعد". وتحضر الرياضيات في هذين الكتابين بما هي "العلم الكلي" للمعرفة الإنسانية. وقد اعتمدنا لتتبع هذا الموضوع على عرض مسألة الرياضي باعتباره علمًا كليًا؛ أي أساسًا لجميع العلوم، أو بتعبير آخر؛ أرغانون لهذه العلوم. ثم بسطنا في المقام الثاني "الذاتية الديكارتية" باعتبارها يقينًا ثابتا وراسخا، أي جعل الذات هي منطلق المعرفة، و"الأنا" بوصفه حاملًا لهذه المعرفة، ثم حاملًا لقضية cogito ergo sum. وفي الأخير توقفنا عند قواعد لهداية العقل، التي جعلت الرياضي، في معناه الاغريقي الصرف، يتجسد في ثلاث قواعد أساسية؛ الثالثة والرابعة والخامسة.

كلمات المفتاح: العلم الحديث، الماهية الميتافزيقية، الطموح الرياضي، العلم الكلي، تأملات ميتافزيقية.

Abstract:

This article examines the metaphysical essence of modern science, focusing on revealing the mathematical aspiration present in the two books of the French philosopher René Descartes: "Metaphysical meditations" and " Rules for the direction of the mind" from the perspective of Martin Heidegger. Mathematics is present in these two books as the universal science of human knowledge, as well as the project of a priori knowledge of Being. To trace this diagnosis, we relied on presenting the issue of the mathematical as a universal science.

Keywords: Modern science, Metaphysical essence, Mathematical aspiration, Universal science, Metaphysical meditations.

[1] طالب باحث في سلك الدكتوراه، تخصص الفلسفة. مختبر الإنسان والمجتمعات والقيم، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن طفيل، القنيطرة – المغرب.

Email: jaouad.elhaitor@uit.ac.ma

[2] أستاذ التعليم العالي، جامعة ابن طفيل، القنيطرة – المغرب.

Email: Mohamed.Meziane@uit.ac.ma

مقدمة

إننا لا نتوخى من هذا المقال أن نعرض موقف هايدغر من العلم المعاصر؛ كما من الممكن أن يفهم، نظرًا لأن للرّجل تصورًا عامًا عن العلم وعلاقته بالتقنية، وإنما نركز جهدنا أساسًا على رأيه في العلم الحديث؛ خلال القرنين السادس والسابع عشر الميلاديين. وحينما نحدد هذه الفترة من تاريخ تطور العلم الحديث، بعد مرور أكثر من 300 سنة على نشأته، نجد أنفسنا نرجع مجددًا القهقرى إلى "الفلسفة الديكارتية."[3] على هذا المنوال بالضبط، فإن ديكارت، بما هو أبٌ للفلسفة الحديثة؛ له كتابين اثنين قد يبدوان منفصلين؛ وعادة ما يقرآن كذلك، ضمن تاريخ الفكر الفلسفي، لكنهما حسب هايدغر يشتركان في نفس الهّم ويحملان النّفَسَ ذاته؛ أي إرساء الأسس الميتافزيقية للعلم الحديث. والكتابين المشار إليهما: "تأملات ميتافزيقية"(1647) و"قواعد لهداية العقل" (1701). وما نلفت إليه النظر، أننا نقول في هذا السياق "قواعد" وليس "خطاب في المنهج" (1637)؛ هذا الكتاب المذكور الذي كان له النصيب الأوفر من البحث كما يحظى بشعبية كبيرة، بينما كتاب "القواعد" يكاد يكون غائبًا. وحينما نقول الأسس الميتافزيقية؛ فالمقصود بها حسب هايدغر "مشروع المعرفة الأساسية للكون التي تنبني عليها معرفة الكائن."[4] أي ما يشكل الخلفية القبلية للمعرفة المتعلقة بهذا الكائن (الطبيعة). في هذا الصدد، فإن مراد هايدغر من ذكر الكتابين معًا هو إعادة بسط الميتافيزيقا الحديثة من خلال المشروع الدّيكارتي، طبقًا للتأسيس الرياضي.[5] وقد جاءت هذه الخطوة الكاشفة لطبيعة البناء الداخلي للعلم الحديث من خلال تشريح طريقة تفكير "العقل المحض" في محاضرة "السؤال عن الشيء"[6]، الذي هو عقل تم التأسيس له منذ المنطق الأرسطي؛ بما هو عقل موروث. وهكذا يعُدُّ هايدغر أن "في عنوان العقل المحض يكمن لوغوس أرسطو، وفي محض على الخصوص يكمن شكل معين للرياضي"[7]؛ بما يعني في نظرنا أن في العقل الكانطي؛ بما هو عقلٌ محضٌ، تنفتح أمامنا إمكانيتين ميتافيزيقيتين مختلفتين؛ الإمكانية الأولى المتمثلةُ في حجب المعنى البدئي للوغوس الهيراقليطي؛ وذلك بالضبط حينما تم تأويل اللوغوس من خلال العقل (Ratio)، وتعريف الإنسان من طرف أرسطو أنه حيوانٌ عاقل، وهو التعريف الذي هيمن على تاريخ الفلسفة إلى غاية نيتشه. وبالتالي، فإن "القول، اللوغوس (Logos)، عند أرسطو ذاته الخيط الهادي لتعيين المقولات، أي لتعيين كون الكائن"[8] قد انجرَ إلى حقل المنطق، وانتقل من "الجمع والتوحيد" كما كان يفهمه الاغريق الأوائل (هيراقليطس بالأساس) إلى "الحكم". وهذه الإمكانية هي التي سينخرط هايدغر في كشف خلفياتها منذ تحوله بعد الثلاثينيات إلى قراءة لوغوس هيراقليطس خارج التأويل المنطقي الأرسطي المتأخر. بينما الإمكانية الثانية؛ التي يكشف عنها العقل الكانطي متضمنةٌ بالأساس في خاصية "محض" الذي يحمل في طياته ذلك العنصر الرّياضي، ولذلك، فهي الإمكانية التي نضعها نُصُب أعيينا في هذا المقال، والتي أفرد لها هايدغر محاضرة "السؤال عن الشيء" المذكورة آنفًا، على ضوء حواره المبكر مع كانط ومشكلة الميتافيزيقا لديه. وبناءً على ذلك، انطلاقًا من تتبع خيوط تشكل العقل المحض الكانطي، ضمن محاضرة "السؤال عن الشيء"، وبالتركيز دائمًا على الإمكانية الثانية، يصل هايدغر إلى حقيقة مفادها: أن العلم الحديث برمته، بُنيّ وتأسّس على صرح ميتافزيقي صامت؛ تمثل في تأسيس الرياضيات الحديثة كعلم كلي وشامل يخترق نظرة الانسان إلى ذاته وإلى الطبيعة، ويهيمن على الحركة الداخلية للعلوم الحديثة.

---

[3] تعرَف الفلسفة الحديثة برونيه ديكارت؛ ويعرف ديكارت ذاته بمؤلفين أو كتابين تركا بصمةً لا يمكن أن تزول بزوال السنين وانقضائها، حيث نتحدث في هذا المقام عن "قواعد لهداية العقل" وكتاب "التأملات الميتافزيقية". وتقاس عظمة الفكر المعبر عنه في هذين الكتابين بمستوى الثورة التي أحدثها؛ بأن سار بالعقل على خطى التفكير المستقل عن حقبة القرون الوسطى.

[4] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء: حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كنت، ترجمة إسماعيل المصدق، مراجعة موسى وهبة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى: بيروت، تشرين الأول (أكتوبر) (2012). ص: 105.

[5] نفس المرجع، ص: 151.

[6] محاضرة نشرت سنة 1962 تحت عنوان "السؤال عن الشيء: حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كنت"، ثم أعيد نشرها بعد ذلك في إطار المؤلفات الكاملة، المجلة 41. (أنظر: نفس المرجع، ص: 10)

[7] نفس المرجع، ص: 150.

[8] نفس المرجع، ص: 149.

وفق هذا المنوال، فإن العلم الحديث حسب هايدغر قد عرف تطوراً ملحوظا مقارنة بالعلم القديم والوسيط؛ وذلك بسبب الارتباط القوي الذي كان بين الفلسفة والعلم؛ أي أن أغلب العلماء أو الباحثين في الطبيعة كانوا فلاسفة حقيقين، وكان لديهم انشغال فلسفي حقيقي بالمبادئ المؤسسة للعلم الطبيعي، في هذا الصدد، "لقد فهموا أن لا وجود لوقائع بحتة، وأن الواقعة ليست ما هي إلا على ضوء المفهوم الذي يؤسسها، وكل مرة بمدى ذلك التأسيس."[9] وبالتالي، فالتأسيس الفلسفي لهذا "المفهوم" كان هو ما يشغل التفكير الحديث في تلك المرحلة الحرجة من تاريخ تطور الأفكار العلمية، وإذا أخذنا ديكارت نفسه – الذي وضع الإطار النظري للعلم الحديث – لا يخرج عن هذه القاعدة، حيث كان الرجلُ عالمًا فيلسوفًا؛ منشغلًا بالمفاهيم وتأسيسها بالموازاة مع انشغاله بالأعداد والأشكال الهندسية. ولذلك كان يبتغي وضع الإطار المفهومي العام للعلم. ويعدُّ هايدغر أن ديكارت الذي عادةً ما يقرأ من طرف التقليد الفلسفي على أنه صاحب "الشك المنهجي"، في كتاب "التأملات"، فهو حينما شك، لم يكن فقط فيلسوفًا شكاكًا يميل إلى الريب؛ بل لم يكن الشك اختياراً بالنسبة إليه في تلك الفترة قياساً إلى الفتح الميتافزيقي الذي قائم به، وإنما كان عليه أن يشك بالضرورة، لأنه أحدث قفزة قوية ستغير وجه العلم إلى الأبد،[10] وستقطع على غير رجعة مع علوم القرون الوسطى؛ وذلك بالضبط، حينما سارع إلى وضع "الرياضي" "كأساس مطلق وبحث عن ركيزة مناسبة لكل العلم."[11] وبالتالي كان شكه استجابة لهذا المبدأ.

وهكذا، فإن الماهية الميتافزيقية للعلم الحديث؛ تجعلنا نثير ثلاث قضايا هي من صميم ماهية العلم الحديث برمته؛ تأتي القضية الأولى في مسألة الرياضي باعتباره علماً كليًا؛ أي أساس لجميع العلوم، أو أورغانون لهذه العلوم. وثانيًا بسط الذاتية الديكارتية باعتبارها يقينا ثابتا وراسخا؛ أي جعل الذات هي منطلق المعرفة، والأنا بوصفه حاملا لهذا المعرفة، ثم حاملا لقضية Cogito ergo sum، أي الذات التي تفكر في موضوعها (الأشياء)[12]. وفي الأخير نختتم مقالنا بالوقوف عند "قواعد لهداية العقل"، التي جعلت "الرياضي" يتجسد في ثلاث قواعد أساسية؛ وذلك من خلال إشارتنا إلى القاعدة الثالثة والرابعة والخامسة حصراً. وسنحاول أن نسلك هذه المنهجية لسبر أغوار هذه العناصر التي يتتبعها هايدغر عند ديكارت خطوة بخطوة.

1. الرياضيات كعلم كلي (قراءة في المشروع الديكارتي للمعرفة الكلية)

إن أول شيء يمكن أن نبدأ به، إذا أردنا تحديد العلم الحديث، ورصد أهم ميزة تخصه؛ فقد نعرّفه بأنه علم بالوقائع أو يستند على التجربة والحساب،[13] وذلك استناداً إلى تأسيس المنهج التجريبي وتوطيد دعائم التجربة بما هي مصدر وحيد لمعرفة الطبيعة، كما تم الأمر مع فرانسيس بيكون، لاسيما حين أعرض علماء الطبيعة خلال العصر الحديث عن الكتاب المسطور (كل الكتب القديمة) وانصرفوا إلى قراءة الكتاب المنظور (الطبيعة).[14] وفي هذا الصدد، يعدَ هذا الأمر صحيحًا في نظر هايدغر. لكن؛ المفارقة التي تُثار أن العلم القديم (اليوناني، الوسيط) هو الآخر تحضر فيه هذه المسألة وفق منظوره الخاص؛ بما يعني أن العلم الحديث لا يتفوّق في شيء على العلم القديم. ويقودنا هذا الأمر إذن إلى سؤال مهم سيكون هو ما يفتح في وجهنا الباب للدخول إلى ماهية العلم الحديث الخفية، والذي يمكن أن

---

[9] لا يفوتنا أن نشير إلى أن هايدغر وجه نقداً مباشرا في هذا السياق؛ أي سياق الارتباط بين العالم والفيلسوف في العصر الحديث، إلى المدرسة الوضعية التي تعتبر أنه "يمكن الاكتفاء بالوقائع أو بوقائع أخرى وجديدة، في حين أن المفاهيم ليست سوى وسائل مساعدة نحتاج إليها بكيفية ما، لكن لا ينبغي الإفراط في التعامل معها – إذ أن ذلك سيكون فلسفة." (أنظر، هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 106). كما يستمر هايدغر في نقده وسخريته قائلا: "لكن المضحك أو بتعبير أصح، المأساوي في الحالة الراهنة للعلم هو بالدرجة الأولى الاعتقاد بأنه يمكن تجاوز النزعة الوضعية بواسطة النزعة الوضعية". وهذا ما لم يكن مطروحا منذ 300 سنة." (أنظر، هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق). ومعنى هذا؛ أن هايدغر يدعو مجدداً إلى عودة الصلة بين ميدان الفلسفة وميدان العلم للمزج مجدداً بين الوقائع والمفاهيم، وألا يظل هذا العلم يسير ويتقدم في انفصال تام عن حقل التفكير، لأنه وفق هذه الصيغة "لا يفكر".

[10] نفس المرجع، ص: 145– 146.

[11] نفس المرجع، ص: 146.

[12] وأيضا الكشف عن الذات العارفة بوصفها مصدرا مطلقًا للمعرفة، لا يطاله الشك أبدًا، في حين أن جميع العلوم الأخرى خاضعة للشك، وتصحح معارفها باستمرار.

[13] المرجع نفسه، ص: 107.

[14] أمزيل، حاتم، مجلة الحرية، العدد 10، إدارة النشر والتحرير محمد الهلالي، مطابع الرباط نت، خريف 2022، ص: 52.

نصوغه على الشكل التالي: ما الشيء الذي يحضر في العلم الحديث ويغيب في العلم القديم؟ أو ما الشيء الذي جعل العلم الحديث ينفصل جملة وتفصيلًا عن العلم القديم ويسلك طريقًا آخر؟

إنّ الجواب، حسب هايدغر، هو أن العلم الحديث "تكمن سمته الأساسية في ذلك الذي يهيمن على الحركة الأساسية للعلم بما هو كذلك على نحوٍ أصلي وحاسم: إنه التعامل مع الأشياء خلال العمل والمشروع الميتافزيقي لشيئية الأشياء."[15] بما يعني أن أهم تحول جعل العلم الحديث يقفز على مستوى النتائج التي يحققها، من خلال غزوه للطبيعة، يكمن بالضبط في "النواة الميتافزيقية" الداخلية التي كانت غائبة في العلم القديم، والذي كان علمًا عاجزًا عن إحداث هذه الثورة الصامتة. إن هذا يقودنا مباشرة إلى إزاحة اللثام عن هذا المشروع المعرفي؛ ديكارتيُّ النشأة والمولد؛ إنه ببساطة "الطموح الرياضي". وقد بنى هايدغر هذا الاستنتاج الفلسفي في قراءته لماهية علم الطبيعة على جملة كانطية يوردها الكثير من الدراسين لكانط؛ لكنها مع ذلك غير مفهومة بشكل كافٍ في اعتقاده، يقول منطوق هذه الجملة: "لكنني أدعي أنه لا يمكن أن يوجد في أي نظرية خاصة للطبيعة من علم حق إلا بقدر ما يوجد فيها من رياضيات."[16] استنادًا إلى التأويل الهايدغيري للعبارة، فقد انتبه كانط باكرًا إلى الطبيعة الكلية لهذا الطموح الحديث، وبالتالي ما يقوم به هايدغر، هو إعادة التفكير مجددًا في هذا الطموح الذي أخذ شيئًا فشيئًا يكتسح العلم الطبيعي، منذ نشر كتاب "التأملات" الديكارتية وقواعد لهداية العقل إبّان العصر الحديث. لكن؛ ماذا نقصدُ يا ترى بالطموح الرياضي؟ إن هذا السؤال يمكن أن نجيب عنه إجابة سهلةً وبسيطة تجنبنا عناء التأمل في اللفظ، ونقول؛ إن "الرياضيات" هي الهندسة والجبر؛ كما ندرّسها في مدارسنا وجامعاتنا ونألفها ألفة تخفي أي معنى آخر يمكن أن ننسبه للفظ. إلا أن هايدغر، كما هو دأبه دومًا في العودة إلى الاغريق لضبط دلالة الألفاظ، لا يفهم الرياضيات وفق هذا المعنى الحرفي والشائع؛ الذي لا يلمس إلا جزءًا من هذا "الرياضي"، أو بتعبير آخر، يعدّ في تأويله، أن هذا التعريف "مجرد شكل للرياضي"[17] أي أنه ضربٌ فقط من "الرياضي" الذي كان عند الاغريق يحمل صفة الكلية والشمولية. وبالتالي، لا يعدو أن يكون هذا التحول في المعنى خطأً شائعًا ومتداولًا بيسر، حتى أصبح صالحًا للاستعمال اليومي؛ لكنه مع ذلك غير حقيقي. والجواب الدقيق إذن، في نظر هايدغر، يتمثل في العودة إلى الإغريق أصحاب لفظ الـ mathémata ، حيث يُعرف الإغريق ذلك "الرياضي" ta mathémata بكونه القدرة على التعليم والتعلم، أي ما نملكه سلفًا دون أن نستمده من الأشياء أبدًا.[18] ونجد في لغتهم الاغريقية كذلك لفظ manthánein والتي تعني درَس، وكلمة máthesis تعني الدرْس، وفي المعنى المزدوج؛ الذهاب إلى الدرس والتعلم، وبالتالي؛ فالدّرس يأتي بمعنى ما يُدرس.[19] وعليه، وفق هذا المعنى الاغريقي الذي وضحناه في السابق، فإننا حينما نتعلم شيئًا جديدًا؛ فإننا نتعلم فقط "استخدام" الاشياء، فحينما نريد أن نعرف ما هو السّلاح على سبيل المثال، فنحن نتعلم فقط استخدام "السلاح"، لأننا مسبقا نعلم ما هو السلاح (الشيء). ونشير هنا؛ أنّ عادة ما يرتبط "الرياضي" في أذهاننا بالعدد، لذلك نطرح السؤال الآخر الأكثر عمقًا: لماذا يعتبر العدد رياضيًا؟ هذا سؤال مشروع في نظر هايدغر؛ لأن العدد هو معرفة نملكها قبليًا ولا نستمدها من الأشياء؛ أي هو معرفة تكون في ذهننا بشكل سابق عن الشيء وغير موجودة فيه بأي شكل من الأشكال، وهذه المعرفة افتراضية تقول لنا ما هو الشيء؛ أي كينونته. وإذا أردنا توضيح هذا المعنى؛ فعندما نضع تفاحة إلى جانب تفاحة، فالتفاحتين

---

[15] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص ص: 107– 108.

[16] نفس المرجع، ص: 108.

[17] نفس المرجع، ص: 137.

[18] نفس المرجع، ص: 114.

[19] وفي نفس السياق، يقول هايدغر في محاضرة تعود لسنة 1924 متحدثًا عن المعرفة كما كان يفهمها الاغريق: "تحيل المعرفة، بمعنى ἐπίστήμη، على الكائنات التي هي موجودة منذ الأزل، وهذا ليس إلا إذا كان في المقدور جعلها معرفة على النحو الذي هي عليه ممكنة بطريقة عامة. الافتراض الأساسي للفلسفة الإغريقية — هو هذا نفسه الذي يترأس إمكانية المعرفة على النحو الذي توجد عليه الكائنات، التي هي على الشكل الذي كانت عليه منذ زمن طويل. المعرفة، بطريقة ملازمة، تفهم كحكم مطلق على كائن محكوم من خلال وعبر افتراض [Gestelltsein] في ظله يتعين على الكائن أن يكون دائما ما هو عليه؛ وهذا الكائن بالنسبة للإغريق في المقام الأول معروف ككائن الرياضيات. وبموجب هذا الافتراض فقط الأشياء قابلة للتعليم والتعلم. ما يمكن تعليمه هو μάθημα — من خلال ذلك يتعامل هذا العلم مع ما هو بشكل خالص وببساطة قابل للتعليم."
Heidegger, Martin, DASEIN ET ÊTRE-VRAI SELON ARISTOTE (Interprétations d'Aristote, Éthique à Nicomaque, livre VI) (1924), p : 7-25. P : 19.

كشيئين مستقلين عن بعضهما البعض لا تقولان لنا ما هو العدد "إثنان"؛ وهكذا الأمر حينما نقول رغيف وسكين وكوب ماء. لا نعرف "الثلاثة" من هذه الأشياء، وقص على ذلك. وبالتالي، ما يمكن استنتاجه من معنى العدد، أننا لا نعرف الثلاثة (3) بما هي ثلاثة إلا عندما نحوّلُ واو العطف إلى علامة (+) ثم نبدأ العدّ.[20] وعلى هذا الأساس، فالرياضي هو كل ما نأخذ به علماً بشكل مسبق، نتعلمه بصرف النظر عن الأشياء، نظراً لأن الأعداد تكون عند تعاملها المعتاد مع الأشياء، عند حساب الأشياء وبالتالي عند العدّ، هي أقرب ما نأخذ به علماً في الأشياء من دون أن نستمده منها، وكنتيجة لذلك، فإن الأعداد هي الرياضي الأكثر شهرة.[21] لذلك نجد الرياضيات المجردة لا تجد حاجة للعودة إلى عالم الأشياء لتثبت وجود تلك الاعداد أو صحتها على الأقل، لأنها كيانات مجردة ومستقلة عن الواقع، تستمد وجودها من العقل المحض. وعلى هذا المنوال، "أصبح هذا الرياضي الأكثر تداولًا هو الرياضي بإطلاق."[22] لكن ما يجب الاشارة إليه أن "ماهية الرياضي لا تكمن في العدد بصفته التحديد المحض للكم المحض، بل بالعكس: نظراً لأن العدد له هذه الماهية، فإنه ينتمي إلى ما هو قابل للتعلم بمعنى الـــ máthesis."[23]

لقد كان هذا بالضبط هو تفكير الاغريق في الرياضيات، وليس كما أصبحت تفهم فيما بعد، وهكذا كان ديكارت يفهمها، لذلك وضعها كأساس لجميع المعارف بما هي العلم المطلق بكل شيء، وليس فقط يختزلها في الحساب والهندسة كما نعرفها اليوم، فالرياضيات هي ما يسميه هايدغر بـــ"الميتافزيقا العامة"، ونظراً لأن هذه الميتافزيقا تتمثل في المبدأ الرياضي الكلي، فقد أصبحت حسب هايدغر مرتبطة بالأكسيوماتيك[24] الذي يُستنبط منها، وتحت هذه الميتافزيقا العامة تنضوي "الميتافزيقا الخاصة" التي تتجلى في الثيولوجيا والكسمولوجيا والبسيكولوجيا.[25] والأهم من ذلك؛ "إن علوم الطبيعة الحديثة والرياضيات الحديثة والميتافيزيقا الحديثة هي التي انبثقت عن جذر الرياضي نفسه بالمعنى الواسع؛"[26] أي أن جميع العلوم الطبيعية هي ميتافزيقيات خاصة وضيقة نتجت عما هو أعم منها؛ ذلك المتمثل في "الرياضيات الاغريقية". لهذا، حسب هايدغر، كتب "أفلاطون" على باب أكاديميته الجملة الأشهر على الإطلاق والأكثر تداولًا: "لا يدخل علينا من لم يكن رياضيًا"؛ أي حسب هايدغر من لا يعلم الافتراضات القبلية لمعرفة الأشياء بما هي كذلك. والجدير بالذكر؛ أن هذه العبارة غالبًا ما كان يساءُ تأويلها من طرف بعض كتب التراث أو المتخصصين في الفلسفة؛ لأنهم ببساطة يفهمون الرياضيات كما نفهمها جميعًا اليوم ضمن الأفق الحديث.[27] وحينما نرجع القهقرى إلى "ديكارت" نفسه، الذي هو معنيٌّ بهذه المسألة، نجد أنه لا يختلف مع هايدغر كثيراً في تأويله للرياضيات كما يفهمها الاغريق، حيث يتفق معه حرفيًا في تأويل هذه العبارة التي كتبها أفلاطون على باب أكاديميته؛ يقول أب الفلسفة الحديثة: "ثم فكرت فيما جعل مبدعي الفلسفة[28] لا يقبلون أيّ أحد لدراسة الحكمة إن هو كان جاهلا بالرّياضيّات، كما لو كان هذا العلم أيسر العلوم وأكثرها ضرورة لتكوين العقول وإعدادها لفهم علوم أخرى أرقى منها منزلة. فتبادر إلى ذهني أنّهم يعرفون نوعا من الرّياضيّات المختلفة جدّا عن الرّاضيّات المألوف في عصرنا."[29] بما يعني أن ديكارت كان على دراية بالمشروع المعرفي الذي يرفع قواعده ويشيّد بنيانه. ونشير في هذا السياق أن هايدغر كان في قراءته لتاريخ الفلسفة لا يفهم لفظًا ولا يسلم بمعناه إلا

---

[20] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 115.

[21] نفس المرجع.

[22] نفس المرجع.

[23] نفس المرجع.

[24] هو عملية استنباط منطقي؛ ننطلق فيه من بديهيات لا نبرهن عليها، ونعتبرها صادقة، ثم نبني عليها في بعد كل النظريات والقضايا الأخرى. ومن شروط هذا الكسيوماتيك: الاستقلال، الاتساق، الاكتمال. ويعتبر هايدغر أن من الصعوبة بمكان البرهنة على الكسيوماتيك توسلا بالمناهج الرياضية. (أنظر:

Martin Heidegger, « Dasein et être-vrai selon Aristote. (Interprétations d'Aristote, Éthique à Nicomaque, livre VI) (1924) op, cit, p: 19.

[25] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 154.

[26] نفس المرجع، ص: 138.

[27] لطالما كان هايدغر يحذر من فهم الألفاظ الاغريقية ضمن هذا "الأفق " المتورط في شبكة الميتافيزيقا، من رأسه إلى أخمص قدميه.

[28] يقصد ديكارت الفلاسفة الإغريق.

[29] ديكارت، رونيه، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله، دار سراس للنشر (2001)، ص: 43.

بعرضه على جذوره الاغريقية، وكأن الفهم الاغريقي، هو الفهم الأصيل، وهو القادر على أن يقودنا إلى فهمٍ أفضلٍ للتراث الغربي الحديث (ميتافيزيقا العلم الحديث بالأساس) من جهة، والتراث الاغريقي القديم من جهة ثانية (شذرات الإغريق الأوائل).[30] وفق هذا المنوال، يعدّ هايدغر أن انتماء الرياضيات اليوم إلى كلية العلوم الطبيعية له أسباب تاريخية، ولا يعود الأمر لماهيتها الاغريقية، بدعوى أن "الرياضيات تنتمي سابقًا إلى الفنون الحرة السبعة (septem artes liberals)."[31] وبالتالي قد نفى هايدغر في نفس السياق أن تكون الرياضيات علمًا طبيعيًا "كما أن الفلسفة ليست من علوم الروح،"[32] بمعنى أن حشر الرياضيات إلى جانب العلوم الدقيقة؛ ليس إلا خطأً تاريخيًا وجب تصحيحه أو عدم تصحيحه، وهو ما ينطبق على الفلسفة كذلك. ولهذا، فعادةً – وبكيفية تفكير تقليدية – تفهم الرياضيات في معناها الضيق، لذلك يتمُّ ضمُّها إلى كلية العلوم الطبيعية، لأن المعنى المعتاد للعلم لا يحافظ على شموليته وحضوره في بنية جميع المعارف الإنسانية كخلفية ميتافزيقية تشرّع للعقل البشري برمته، وتضع الأسس التي يجب أن ينهض عليها أي علمٍ كان، بل هذا الفهم القاصر أو الناقص للفظ الاغريقي يجعله يشمل فقط الهندسة والجبر، وبالتالي نسقُط في ترجمة غير أمينة وفهم غير دقيق للكلمة الاغريقية.

ومع ذلك، فهذا الاستقصاء الدلالي للألفاظ المرتبطة بـــ"الرياضي" ومعانيه الإغريقية لا يمكّننا من اسكناه حقيقة "الرياضي" الذي سيأتي على كشف ماهيته كأساس ميتافيزيقي للعلم الحديث؛ "لأجل ذلك يجب تقصي السياق الأوسع الذي أدرج فيه اليونان الرياضي وعن ماذا ميزوه".[33] وعليه، فقد رتب اليونان "الرياضي" ضمن ta phusiká؛ بمعنى الأشياء على مستوى ظهورها وبزوغها انطلاقا من ذاتها. ثم الأشياء التي هي من إنتاج اليد البشرية؛ ونقصد بذلك الصنعة اليدوية (التكنولوجيا الحديثة مثلا).[34] إلا أن ما هو مهم غاية الأهمية في هذا العنصر "الرياضي"؛ أنه يحظى بمجموعة مبادئ أهمّها: حرية جديدة وتقييد ذاتي استنادًا إلى ما يمنحه لذاته من هامش للاستقلال. على خلاف العلم الوسيط الذي كان مرتبطاً بالوحي (اللاهوت، الثيولوجيا) وكان مقيدًا بهذا "التوتر" الثيولوجي لإنسان القرون الوسطى، غير قادر على الفكاك منه،[35] ويقول هيدغر في هذا السياق: "لم يكن هنالك علم دنيوي."[36] وإذا كان هذا هو واقع العلم في القرون الوسطى، فقد مكّن "الرياضي" كما فهمه الاغريق للعلم الحديث من بناء ذاته بشكل مستقل بعيدًا عن أنظار اللاهوت من جهة، وبالاعتماد على العقل الرياضي كأساس ميتافزيقي لذاته ولباقي العلوم من جهة ثانية؛ أي شكّل الرياضي أساسًا متينًا وراسخًا لذاته وللمعرفة العلمية على حد سواء. ويحتوي الرياضي حسب هايدغر في ماهيته؛ بصفته "مشروعًا" للمعرفة، على إرادة خاصة لإعادة تشكيل صورة المعرفة بما هي كذلك وتأسيسها انطلاقا من ذاتها. ولا يستجيب الرياضي إلا للمبادئ التي ينهض بها ذاته، هذا الأمر بالضبط يسمح بتحقيق الحرية من كل القيود اللاهوتية والكنسية أو تلك المرتبطة بالوحي.[37] فإذا كانت الكتابات السياسية خلال هذه الفترة من العصر الحديث قد ركزت كامل جهدها على فصل السياسي عن الديني، فإن ديكارت قد قاد ثورة من نوع آخر؛ إنها ثورة علمية ومعرفية صامتة تقومُ على أساس فصل "العقل المعرفي" الحديث عن الأساس اللاهوتي؛ الذي كان يقيس حقيقة المعرفة الطبيعة بمصدر فوق الطبيعة،[38] كسندٍ مطلق لهذه المعرفة.

---

[30] يمكن الرجوع هنا إلى محاضرات مارتن هايدغر على امتداد سنوات الثلاثينيات، التي تعيد بناء المفاهيم الاغريقية الأصلية اعتمادًا على شذرات أسلاف سقراط، هيراقليطس وبارمنيدس وأناكسيمندر.

[31] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 108.

[32] إن تصنيف الفلسفة بانتمائها إلى كلية الفلسفة أو علوم الروح، والرياضيات كعلم من علوم الطبيعة يمثل عيبا في هذه المحاضرة (يقصد هايدغر محاضرة السؤال عن الشيء لأنه بالرغم من استخدام التسمية فإنه يعترض عليها). (أنظر نفس المرجع السابق)

[33] نفس المرجع، ص: 109.

[34] نفس المرجع.

[35] Heidegger, Martin, Duns Scotus's Doctrines of Categories and Meaning, translated by Joydeep Bagchee and Jeffrey D. Gower, Indiana University Press, (2022). P: 6.

[36] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 138.

[37] نفس المرجع.

[38] نفس المرجع.

لقد تمثلت هذه الثورة التي قادها ديكارت في كتابين اثنين سبق لنا ذكرهما في مقدمة المقال، وبالتالي حينما نتحدث عنهما، فإننا نتحدث في الحقيقة عن مشروع واحد قائم بذاته، حيث يحضر اكتشاف قارة الكوجيتو ضمن كتاب "التأملات[39]"وصياغة القواعد الأساسية لهداية العقل في الكتاب المعروف اختصاراً بـــ"القواعد"، جنبًا إلى جنبٍ كمشروع موحّد يخرج من مشكاة واحدة لينير طريق العقل، وبما يمثله الكتابان معًا من إرساء تام لـــدعائم الـــ"علم الكلي"، وذلك من خلال شقِ طريقٍ مختلفٍ قائمٍ على بناء ميثاق شرفٍ جديدٍ للعقل البشري، يوحّد المعرفة العلمية ضمن رؤية واحدة لا انفصام لها. وبالتالي، لا يقرأ هايدغر الكتابين في معزل عن بعضهما البعض، بل لهما نفس الهّم ويقولان نفس الشيء، وإن كان بطرق مختلفة. في هذا السياق، إذا كان "إدموند هوسرل"، على سبيل المثال، قد لام ديكارت عن تفريطه في الكوجيتو على حساب اهتمامه بتأسيس "الهندسة التحليلية" أو "الفيزياء الرياضية" كنموذج للمعقولية، وجعل الكوجيتو مجرد مقدمة استنباطية لا غير، فإن هوسرل لم يستشعر عمق الثورة التي قام بها ديكارت، لأنه بقي محصوراً ضمن رؤيته الفلسفية القائمة فقط على تأسيس علم في الذاتية؛ عاداً "ديكارت قد دشن نمطًا جديداً من التفكير، ومعه غيرت الفلسفة مسيرتها بشكل جذري من الموضوعية الساذجة إلى الذاتية الترانسندنتالية."[40] لكن هذا المشروع الذي ينظر إلى "الذاتية" في معزل عن كتاب "القواعد" لا يمكنه أن يلاحظ حضور الرياضي فيهما معًا كقاسم مشترك، وبالتالي يعجز عن إدراك البناء والخلفية الميتافزيقية للعلم الحديث.

وهكذا، تظهر لنا الرّياضيات ضمن المشروع الديكارتي بما هي المنقذ من الضلال في العصر الحديث، والمخلص الذي جاء ليفصل العقل العلمي عن التبعية إلى اللاهوت والكنيسة، وهذا المشروع الديكارتي "الصامت" كان أخطر وأشد فتكًا من فصل الدين عن السياسة (العلمانية) لأنه يحقق الانفصال التام للعقل العلمي عن رقابة اللاهوت ليبني صرحه بعيداً عن دهاليز الكنيسة، وبالتالي ينسل عن الحدود التي يرسمها الدين ليقتحم تلك المناطق المحاطة بسياج؛ ويعود بعد أن يشتد عوده ليشاكس المسلمات الدينية ويزعزع ثقتنا فيها. وعلى هذا المنوال؛ فأعظم فتح جاء به ديكارت للمعرفة الإنسانية؛ هو تحرير العقل من الرقابة الميتافزيقية للاهوت وبناء أساس ميتافزيقي مستقل، وهذا ما لم يدركه آباء الكنيسة آنذاك؛ وانشغلوا بـــ"التأملات الميتافزيقية" لكنهم أغفلوا الأرضية الجديدة التي ستنشأ فيها المعرفة العلمية في كتاب "القواعد"، لتمنح للتأملات الديكارتية معنى جديداً كان خفيًا عليهم. لقد كان لأمد بعيد "تقصي العلم الحق حول الكائن (الطبيعة) يتم عن طريق تأويل مصادر الوحي، الكتاب المقدس والتقليد الكنسي."[41] وعليه، فإن مجالات المعرفة الإنسانية كانت مقيدة بالإطار الديني الذي يحددها، لذلك، كان ديكارت يمدح الرياضيات ويصفها بكونها "شرف العقل البشري"، لأنها ببساطة خلقت هامشا من الحرية لهذا العقل خارج الحدود التي ترسمها الثيولوجيا واللاهوت سلفا ممثلين في الكنيسة. وإذن، فالعلم، حسب هيدغر، "الذي يسمى طبيعيًا، الذي لا يُستمدُ من الوحي، لم يكن له لذاته وانطلاقًا من ذاته أي شكل خاص به للمعرفة والتأسيس."[42] ولا يعني هذا أن المعرفة الطبيعية كانت تقاس بالمعرفة فوق الطبيعة، بل ما يظل حاسمًا في هذا السياق هو أن المعرفة الطبيعية لم تكتسب انطلاقًا من ذاتها تأسيساً وطابعًا مستقلين ومنفصلين؛ أي لم تتمتع بالاستقلالية عن الدين واللاهوت.[43]

---

39 الكتاب الذي يتناول القضايا الميتافزيقية، كالذات، والنفس، ووجود الله... وقد انشغل بعض رجال الدين واللاهوتيين بهذا الكتاب، لاعتقادهم أن القضايا التي يبث فيها ديكارت هي من صميم الدين المسيحي ذاته، لذلك، عندما انتهى ديكارت من تأليف الكتاب، بعثه إلى بعض "اللاهوتيين من أمثال كاتروس (Caterrus) ومرسن (Merssenne) وغاسندي (Gassendi) ... وذلك لإبداء الرأي، ثم رد ديكارت على ما أثير من اعتراضات، وتمّ نشر الكتاب باللغة اللاتينية سنة 1641. وقد قام "دوق لونيس" (Clerselie) بترجمة الردود عن الاعتراضات إلى الفرنسية، فصوبها ديكارت كلها، وأدخل عليها بعض التعديلات، وأضاف بعض التعليقات، و لم يظهر الكتاب إلّا سنة 1647." (أنظر: كتاب قواعد لتوجيه الفكر لديكارت، رونيه، مرجع سابق، ص: 25)

40 Edmund Husserl, Méditations cartésiennes : introduction à la phénoménologie, traduit de L'Allemand par Mlle. Gabrielle Peiffer et Emanuel Levinas. Libraire philosophie. J. Vrin 6 place de Sorbonne (Ve) Paris (1966). P : 3

41 هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 138

42 نفس المرجع.

43 نفس المرجع.

ويمكن أن نذهب بعيدًا مع هايدغر ونقول؛ أن الرجل ينفي نفيًا قاطعًا أن يكون تبني القياس الأرسطي كان له طابعًا مستقلًا في القرون الوسطى، ولذلك يظل الرياضي، في نظره، الجذر الوحيد الذي يحتوي في ماهيته بصفته مشروعًا؛ مشروعا عقليا للمعرفة، إرادة خاصة لإعادة تشكيل صورة المعرفة بما هي كذلك وتأسيسها انطلاقا من ذاتها، دون الاعتماد على غيرها.[44] وهذا ما فشل فيه القياس الأرسطي في المقابل؛ لأنه كان يُوظّف توظيفًا ثيولولوجيًا. فالتحلل من الوحي ورفض التقليد كأساس ووساطة للمعرفة كان تجليًا للرياضي. و"لا يكمن في الرياضي تحرر فقط، بل في الوقت نفسه، تجربة وصيغة جديدتين للحرية، أي للتقليد الذي ينهض به المرء ذاته.[45] فهذا الرياضي الذي عرفه الإغريق لا يستجيب إلا للمبادئ التي ينهض بها ذاته، هذا الأمر يسمح بتحقيق الحرية من كل القيود اللاهوتية والكنسية أو تلك المرتبطة بالوحي. لقد وضع الرياضي "ماهيته الخاصة كأساس لذاته وبالتالي لكل معرفة.[46]

لذلك نقول؛ على سبيل ختم هذا المحور، أن جعل الرياضيات علمًا كليًا كان إيذانا بتأسيس العلم الحديث تأسيسًا ميتافزيقيا. أي بناء مشروع المعرفة الكلية، وليس هذا القول من وحي خيال هايدغر، وإنما هو تعبير صريح لديكارت ذاته في هذا الشأن؛ حيث يقول في كتاب "القواعد": "وهكذا نرى أنه لابد من وجود علمٍ يشرح كل ما نستطيع البحث عنه بشأن النظام والقيس دون أن نطبقهما على موضوع معيَن، وأن هذا العلم لا نصطلح عليه باسم مستعار بل باسم متداول في الاستعمال هو الرياضيات الكلية لاحتوائها على كل ما يجعل العلوم الأخرى تعد أجزاء منها، والدليل على ذلك أن الرياضيات الكلَية تفوق كل العلوم الأخرى التابعة لها نفعًا ويسرا وأنَها تمتدُ إلى نفس الموضوعات التي تنطبق عليها تلك العلوم وعلى أشياء أخرى كثيرة."47 وحتى نتبيّن هذه الطبيعة الميتافزيقية للعلم الحديث عن كثب، ونقترب من سماتها الأساس، من خلال التعرض للطموح الرياضي الذي قاده ديكارت، دعونا ندخل قليلا إلى رحاب كتاب "التأملات الميتافزيقية"؛ بما هو كتاب تأسيسي لميتافزيقا العلم الحديث، ونتساءل وفق الصيغة التالية: كيف تجلى الرياضي في هذا الكتاب؟ وما هي سماته الأساس؟

2. التأسيس الميتافزيقي للذاتية الديكارتية (في نشأة نظرية المعرفة الحديثة)

مما هو معلومٌ لدينا أنّ الفيلسوف الفرنسي "رونيه ديكارت" قد كتب كتابًا شهيرًا بعنوان "تأملات ميتافزيقية"، كما سبق لنا الذكر، وهو كتاب يتألف من ستة تأملات، كل تأملٍ له موضوعه الخاص. وقد جاء هذا الكتاب يحمل أهم الاكتشافات الفلسفية في العصر الحديث على الإطلاق رغم صغر حجمه،[48]حيث اعترف الفيلسوف منذ مقدمة هذا الكتاب، بشكل صريح قائلًا: "إن كل ما تلقيته حتى الآن، على أنه أصدق الأمور وأوثقها قد اكتسبته بالحواس، أو عن طريق الحواس غير أني وجدت الحواس خدّاعة في بعض الأوقات، والحكمة ألا نطمئن أبدًا كل الاطمئنان إلى من يخدعنا ولو مرة واحدة."[49] على هذا المنطلق، من وجهة نظر الشك في المعرفة الحسية الناتجة عن الحواس الخمس، سيوجه ديكارت كامل جهوده للبحث عن يقين ثابت وراسخ عبر الشك المنهجي الشامل في كل المعارف والعلوم التي تعلمها منذ نعومة أظافره؛ وذلك بالضبط من خلال تأمله الأول. هذا اليقين الثابت الذي لا يجب أن يطاله الشك أبدًا، هو ما ستكلّل به جهوده، حين سيكتشفه بالضبط في "التأمل الثاني" من كتاب "التأملات"؛ والذي سيعتبره "اليقين الأول" قبل يقين وجود الله الذي سينتهي إليه في "التأمل الثالث". وقد حدث هذا التحول حينما توصل إلى أننا "لا نستطيع، ونحن على هذا الشك في كل شيء، أن نشك في أننا موجودون، إن الجملة "أنا موجود" هي حقة جدًا."[50] وهكذا فقد زوده اليقين الأول بيقين "الذاتية"؛ الذي على أساسه تُبْنى كل

---

44 نفس المرجع.

45 نفس المرجع.

46 نفس المرجع.

47 ديكارت رونيه، قواعد لتوجيه الفكر، مرجع سابق، ص ص: 45- 46.

48 الطبعة اللاتينية الأصلية تتراوح صفحاتها بين 60-70 صفحة.

49 ديكارت، رونيه، تأملات ميتافزيقية، ترجمة الدكتور كمال الحاج، منشورات عويدات، الطبعة الرابعة، بيروت (باريس) (1988)، ص: 48.

50 نفس المرجع، ص: 70.

الحقائق التالية، بل هو اليقين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يمكن دحضه بأي طريقة كانت. ومن خلال هذا اليقين المُكتشف؛ يصبح الفكر والوجود متلازمان، بل إن الفكر هو ما يضمن وجود الإنسان بما هو ذات مفكرة وواعية. لذلك، ينتهي ديكارت إلى مسألة "أنا موجود هذا أمر ثابت لكن كم من الوقت؟ مادمت أفكر."[51] وهو ما يخوّل له التسليم أن "هذه القضية أنا موجود هي قضية صحيحة جيدًا في كل مرة أنطلق منها وأتذهنها."[52]وهذا باختصار موجز كتاب "التأملات".

إلا أنّ ما هو مهمٌّ في هذا الكتاب، رغم بساطته الظاهرة، أنه يكشف حسب هايدغر عن أمرٍ غير ملحوظ؛ إنه بالضبط ذلك الطموح المعرفي الذي يسكن اكتشاف اليقين الديكارتي الأول. ولتوضيح ذلك الطموح المعرفي؛ انطلق هايدغر من فكرة أساسية أن "الرياضيات" تقوم على "المنهج الأكسيومي" الذي هو بناء فرضي استنباطي يقوم على بديهيات تصدر عنها نتائج. وهذا الأكسيومي ارتبط بأوليات، وهذه الأوليات تتجلى في أن تكون القضية أولًا واضحة ومتميزة وبديهية evidents، ثم في المرتبة الثانية؛ "يجب أن تقرر الأوليات العليا بصفتها المبادئ الرياضية، مسبقًا بصدد الكائن في كليته: [أي أن تجيبنا عن الأسئلة التالية]: ما هو الكائن؟ ــ وماذا يعني الكون؟ انطلاقا من ماذا تتعيّن شيئية الأشياء وكيف تتعين.[53] أي الكيفية التي يوجد عليها موضوع Obiectum العلم الحديث. وعلى أساس هذه "الأوليات" الرياضية إذن، ومن خلال هذه الأسئلة التي تجيب عنها، تحضر الذات الديكارتية، التي عثر عليها شك ديكارت، بما هي "الحامل" لهذه الأوليات الرياضية، لأنها كما يصفها ديكارت نفسه "اليقين" الذي تُحمل عليه الأشياء جميعها، كما أنها تقرر بشكل مطلق في الكيفية التي تتعين بها كينونة الأشياء؛ فـــ"أنا أفكر، إذن أن موجود؛ وبالتالي، العالم موجود".

بناءًا على ذلك، ما يمكن أن نصل إليه، أن الذات كما يصوّرها ديكارت في "التأملات" تملك موضوعها، الذي هو في واقع الأمر موضوع العلم الحديث ككل (الطبيعة). وتجدر الإشارة إلى أن ديكارت باشر عملية الشك في كل العلوم (الشك المنهجي) كما ذكرنا ذلك آنفًا، لكنه احتفظ، وفق هذا المنوال، بيقينٍ راسخٍ لكل معرفة هو يقين "الأنا أفكر" بوصفه حاملا لقضية؛ هذه القضية تضعها الذات (الأنا أفكر) وتكون قائمة أمامها vorhanden بشكل تلقائي كما يقول هايدغر، وبالتالي تظل الذات هنا؛ "وعاء قائم للكون."[54] وهكذا، لا يمكن للقضية (الموضوع) أن تحضر إلا من خلال هذا الوعاء المطلق الموجود بكيفية قبلية وسابقة على وجودها. ومنه، يعتبر الحامل subiectum حسب هايدغر أساسًا مطلقًا fundamentum absolutum للمعرفة؛ أي ركيزة ودعامة موضوعة بكيفية محضة انطلاقا من القضية بما هي كذلك؛ من الرياضي بما هو كذلك، ويكون في الوقت نفسه هذا الحامل أي الذات راسخ inconcussum بشكل مطلق لا يتحرك.[55] وعليه حسب ديكارت لم تعد المعرفة التي تأتي عن طريق "الكوجيتو العارف" يتسلل إليها الشك أبدًا بعدما تبث يقينها من خلال يقين الذات الأول؛ "أي يقينيًا بإطلاق،"[56] وإنما أصبحت معرفة ثابتة ومستقرة، لأنها مرتبطة بذات عارفة تمسك بزمام موضوعها. ونلاحظ في هذا السياق كيف ربط هايدغر بين "الرياضي" بما هو العلم المطلق واكتشاف اليقين الأعلى الذاتي (الكوجيتو) وبين الشك الذي كان مرافقًا لهما بالضرورة، حيث تنتظم هذه الثلاثية في دائرة لم يعد العلم الطبيعي قادرًا على الفكاك منها، وأصبح هذا العلم يحظى باستقلالية عن أي مصدر خارجي، لأنه يستند على اليقين المطلق وعلى موضوع هذا اليقين؛ الذي يتميز بثبات واستقرار لا يمكن الشك مجددًا في وجوده أو معرفته، وبالتالي، فالطبيعة كموضوع قابلة للمعرفة اليقينية؛ بل تستمد حضورها من هذه الذات كمرجع أول وأخير، لذلك تتحرر الطبيعة من التأويل الثيولوجي واللاهوتي على أنها كائن مخلوق من قبل إله، كما كان سائدًا ضمن نظرية المعرفة السكولائية في القرون الوسطى، لأنها أصبحت الآن مرتبطة بيقين وأساس جديد هو الذات الإنسانية.

---

[51] نفس المرجع، ص: 73.

[52] نفس المرجع، ص: 71.

[53] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص ص 144- 145.

[54] نفس المرجع، ص: 145.

[55] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 145.

[56] نفس المرجع.

ويجب التأكيد أنه إلى حدود فترة بروز ديكارت على ساحة الفكر الحديث؛ كان كل شيء في القرون الوسطى، قائماً بنفسه، يعتبر ذاتًا (sujet).[57] أما التحول الذي جلبته الفلسفة الديكارتية معها وهي تتأمل الذات الإنسانية، أن أصبح الأنا هو الذات المتميزة؛ الذات التي تتعين بالنسبة إليها بقية الأشياء بما هي كذلك. "ونظرًا لأن هذه لا تستمد – رياضيا– شيئيتها إلا انطلاقا من المبدأ الأعلى وذاته (الأنا)، فإنها أساسًا ما يقوم كآخر (الموضوعات، الأشياء) بالنسبة للذات؛ أي ما يقابلها كموضوع obiectum."[58] كما سبقت لنا الإشارة. ونذكر هنا مع ديكارت؛ أن الأشياء ذاتها أصبحت "موضوعات". وبالتالي، فالانقلاب الكبير الذي حدث مع ديكارت؛ أن الموضوع Obiectum لم يعد هو ما يوجد أمامنا في التمثل؛ أي ما نتمثله؛ حيث نقول على سبيل المثال نتمثل جبلًا من ذهب،[59] بل أصبح هذا الموضوع يعطى من قبل الذات، فجبل من ذهب أصبح يحضر بكيفية ذاتية؛ أي مرتبط بالذات الإنسانية (كأساس ميتافزيقي للمعرفة الحديثة). "هذا القلب لدلالة Subiectum وObiectum ليس هنا مجرد أمر يتعلق بالاستخدام اللغوي؛ وإنما هو تغيير يحمل دلالة كبيرة، وثقلًا فكريًا قويًا، إنه تغيير يقلب من الأساس الكينونة، أي انفراج Lichtung كون الكائن، على أساس سيطرة الرياضي."[60] لذلك نقول مع ديكارت؛ ظهور ما يسميه هايدغر بـــ"ميتافيزيقيا الذاتية" التي هي في واقع الأمر"ميتافزيقا المعرفة"[61]، بما يعني على ضوء ما سبق؛ أن الذات هي الحامل وهي مصدر كل شيء آخر، كما نقول؛ تحمل عليها باقي الأشياء أو الموضوعات. وتعمل هذه الذات المكتشفة على عملية إنتاج كل ما هو حاضر أو يمكن أن يظهر في الحضور.[62] إلا أن الطريف في هذا الأمر، أن ديكارت يعتبر مؤسس للفترة الحديثة، ليس بسبب هذا التحول الجوهري في علاقتنا بالموضوعات؛ من خلال اكتشاف الكوجيتو، وإنما بسبب "نظرية المعرفة"، لهذا عملت مدارس وسيطية كالسكولائية إلى تضمين نظرية المعرفة ضمن نسقها، وإعادة قراءة أفلاطون وأرسطو بصيغة محورة ومحرفة لجعلهما منظّرين للمعرفة[63] حتى تعود السكولائية إلى الواجهة من جديد، وتصبح أفكار ذينك الرجلين صالحة للزمن الحديث. إلا أن ما كان ينتظره العصر الحديث حسب هايدغر أقوى بكثير من مسألة التأسيس التقليدي للمعرفة؛ إنه التشريع الذاتي للمعرفة واستقلال المعرفة عن أي مصدر ثيولوجي عدا يقين الذات الإنسانية. و"ليس صدفة أن الصياغة الفلسفية والسمة الأساسية الرياضية للكينونة الحديثة تحققت بشكل حاسم في فرنسا وإنجلترا وهولندا؛ كما أنه ليس صدفة أن لايبنز تلقى دفعات حاسمة من هناك والخاصة أثناء إقامته في فرنسا خلال سنوات 1672-1676."[64] وذلك، في نظرنا، مردّه، دون شك، إلى التأثير الديكارتي وبناء نظرية المعرفة الحديثة الخاصة به، وبالتالي على أساس ثنائية الذات والموضوع، الثنائية الميتافزيقية، التي سيكون لها تأثير كبير على مستقبل المعرفة العلمية لاحقًا.

3. السّمة الرياضية في قواعد لهداية العقل الديكارتية[65]

في القضية الأخيرة التي نثيرها في هذا المقال؛ أن نشير هنا إلى الكتاب الثاني لرونيه ديكارت؛ "قواعد للهداية العقل". فقد "كان العنوان الأصلي للكتاب "مشروع علم شامل يرتقي بطبيعتنا إلى أعلى مراتب الكمال" ثم سمّاه في الطريقة لاحكام قيادة العقل والبحث

---

[57] نفس المرجع، ص: 148.

[58] نفس المرجع.

[59] نفس المرجع.

[60] نفس المرجع.

61 Heidegger, Martin, Essais et conférences, traduit de l'Allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, Galimard. p : 86.

62 Ibid, p : 84.

[63] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 141.

[64] نفس المرجع، ص: 140

[65] تجدر الإشارة أن ديكارت قبل أن يؤلف كتابه "خطاب في المنهج"، كتب في السابق "قواعد لهداية العقل"، وهي قواعد هدفها قيادة العقل وتوجيهه حتى لا يقع في الخطأ، لكنه حين تجاوز سقف القاعدة 21 ترك الكتاب من تلقاء نفسه، و لم يعد إليه من جديد، والسبب أنه يعيد إنتاج نفس القواعد المتعددة والكثيرة التي كان يشتكي منها في القياس الأرسطي المستخدم في مدارس القرون الوسطى، والتي تثقل كاهل العقل عوض أن تحرره، وبالتالي يرتكب نفس الخطأ. وهو ما دفعه إلى الاحجام عن نشره في ذلك الحين، وانصرف إلى تأليف الكتاب الآخر الذي ذكرناه ويحمل عنوان "خطاب في المنهج"، وهو الكتاب المعروف بأربعة قواعد سهلة الاستخدام والحفظ؛ ونقصد قاعدة البداهة والوضوح (اليقين)، قاعدة التبسيط والتحليل، ثم قاعدة التركيب، وأخيرًا قاعدة الإحصاء والمراجعة.

عن الحقيقة في العلوم"، ويعد بمثابة المقدّمة للرسائل الثلاثة: "البصريات" 1635 و"الآثار العلوية" 1635 و"الهندسة" 1636."[66] هذا الكتاب لم يعمل ديكارت على إنهائه ثم طبعه وإصداره في حياته، إنما نشر لاحقًا بعد نصف قرن من وفاته (سنة 1701). والسبب أن ديكارت قد خاب أمله في الكتاب لكثرة القواعد التي بلغها، والتي يصل عددها إلى 21 قاعدة، وكان من المرجح أن تصل إلى 36 قاعدة. وبالتالي، هذا يتنافى مع رغبته في تقليل عدد القواعد لتحرير العقل العلمي الحديث عوض تعطيله، كما هو عليه الحال في المنطق الأرسطي الذي نقده بشدة؛ لاسيما على مستوى كثرة القواعد التي يتألف منها القياس. وتجدر الإشارة، أن هذا الكتاب قد ظل لأمد بعيد مهملًا لهذا السبب، بخلاف الكتاب الثاني "خطاب في المنهج" الذي انتشر انتشارًا كبيرًا.[67] في هذا الصدد، يفسر هايدغر أسباب اهتمامه بكتاب "القواعد" قائلا: "فيه ثمة صياغة المفهوم الحديث للعلم."[68] وهذا صحيح في نظرنا، قياسًا إلى أن هذا الكتاب لا يتعرّض للقضايا الميتافزيقية التي سينفرد بها في المقابل كتاب "التأملات"؛ كـــ"وجود الله" و"الذات" و"النفس"، وإنما يظل مجاله الحقيقي؛ هو التأسيس للعلم الطبيعي[69] ووضع الركائز التي سينهض عليها هذا العلم؛ بمعنى أن الكتاب مخصصٌ للعلم ولأجل العلم وليس كتابًا من أجل القضايا الميتافزيقية التي تهم الفلسفة الحديثة آنذاك. ويحلّل هايدغر عنوان هذا الكتاب انطلاقًا من كلماته؛ فحينما نقول "قواعد"، فإننا بلا شك نتحدث عن "قضايا موجهة يخضع فيها الرياضي ذاته لماهيته."[70] ثم في المقام الثاني، حين نقول "قيادة العقل" فإننا نقصد حسبه: "تأسيس الرياضي حتى يصبح هو ذاته في كليته مقياسًا للفكر الباحث."[71] إلا أن ما هو مهم، من خلال تمعّن هايدغر في ماهية الرياضي داخل متن الكتاب؛ أنه ينتهي إلى أنها ذلك "العلم الكلي" (scientia universlis) الذي يضع الأسس العامة التي يجب أن تقوم عليها باقي العلوم والمعارف الإنسانية جمعاء. وإذا فتحنا كتاب "القواعد"، سيرًا على هدي هايدغر، فإننا نجد ديكارت ذاته يعبر عن نيته في تأسيس هذا العلم قائلًا: "اعتزمت، في هذا المؤلف، وأن أتحدث عن الأشكال والأعداد لأنه لا يمكن أن نعثر على أمثلة غيرها من العلوم غاية في البداهة واليقين مثلها. ولكن بيسر كلَ من تابع فكري بانتباه أنّني لا أفكر البتّة ههنا في الرّياضيّات المألوفة وإنَما سأعرض علمًا آخر تكون الرّياضيّات فيه بمثابة الشكل الخارجي لا العناصر التي يتألّف منها."[72] وانطلاقًا من ديكارت نفسه، مؤلف الكتاب؛ كتاب "القواعد"، هو العمل على بسط مشروع الرياضيات الكلية في معناها الاغريقي الصرف. لكن، هذا العلم، حسب ديكارت نفسه، عليه أن يضم "العناصر الأولى للفكر الإنساني، وأن يتسع مداه حتّى تنبثق فيه حقائق أيّ موضوع كان."[73] ولم يتوقف ديكارت على جعل الرياضيات أساس العلوم الأخرى، بل يذهب في تمجيدها بعيدًا ويرفع من أهميتها كما لم يفعل مع أي علم آخر، حيث يقول في هذا الصدد: "اقتنعت بأن هذا العلم أفضل من كل معرفة أخرى تناقلها البشر، لأنه يمثل منبع كلَ المعارف الأخرى. وإذا ما تحدثت عن الشكل الخارجي، فليس ذلك حرصا منّي على تغطية هذا العلم وإخفائه لإقصاء الانسان العلمي عنه، وإنما لغاية إعطائه شكلا مقبولا حتّى يستطيع أن يتوافق مع الفكر الإنساني توافق أفضل."[74]

وإذا دخلنا إلى الكتاب مجددًا؛ فإننا نتساءل ما هي القواعد التي يتجسد فيها الرياضي حرفيًا؟ لا يعتبر هايدغر أن جميع القواعد التي يتألف منها الكتاب تعكس هذه الرغبة الديكارتية في تأسيس هذه المعرفة الكلية، وإنما يستثني من هذا المجموع (21 قاعدة) ثلاث قواعد

---

[66] ديكارت، رونيه، قواعد لهداية الفكر، مرجع سابق، ص: 25.

[67] يعدّ مترجم كتاب القواعد أن سبب إهمال الكتاب ترجمةً، وبدرجة أقل، تأويلًا، يعود إلى انهماك الباحثين بشكل كبير بشرح كتاب "خطاب في المنهج" أو "حديث الطريقة" شرحًا مستفيضًا. وهنا يشير إلى أعمال إتيان جلسون وجونوفياف روديس لويس حول آثار ديكارت. (أنظر: ديكارت، رونيه، قواعد لهداية الفكر، مرجع سابق، ص: 14)

[68] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 143

[69] ديكارت، رونيه، قواعد لهداية الفكر، مرجع سابق، ص: 17.

[70] هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 142.

[71] نفس المرجع.

[72] ديكارت، رونيه، قواعد لهداية الفكر، ص: 42.

[73] نفس المرجع.

74 نفس المرجع.

فقط، هي ما يتجلى فيها الرياضي بالضبط، كما أن هذه القواعد هي ما يحكم كل الإنتاج العلمي اللاحق؛ وفيها يتجلى ذلك الرياضي الذي يقف بوصفه أساسًا لكل شيء، أو للسؤال عن الشيء، من خلال عودة اللفظ إلى أصله الاغريقي.

على هذا الأساس، وحتى نجيب عن سؤالنا، نذكر هذه القواعد بالترتيب:

- "القاعدة الثالثة" التي تقول حرفيًا: "في مجال الموضوعات التي ندرسها وبالنظر إليها يجب معالجة الأسئلة، وبالضبط لا ما رآه الآخرون أو ما نفترضه نحن أنفسنا، بل ما يمكن أن نعاينه بكيفية واضحة وبديهية أو أن نستنبطه في خطوات يقينية؛ ذلك أنه لا يمكن بلوغ العلم إلا على هذا النحو."[75] ونستشف من هذه القاعدة؛ أن أساسها البداهة والوضوح واليقين في الأفكار، أي ما يتبدى لنا في وضوح وتميز، لا يراودنا حياله أدنى شك أو ارتياب.

- القاعدة الرابعة التي تقول: "المنهج ضروري للبحث عن حقيقة الأشياء."[76]وما نفهمه منها؛ أن طبيعة المنهج المتبع يحدد سلفا نوع الحقيقة التي نرغب فيها ونصل إليها، لذلك يجب انتقاؤه بعناية.

- القاعدة الخامسة تقول: "يكمن المنهج كله في تنظيم وتقسيم الأشياء التي يجب أن يتوجه إليها نظر الفكر من أجل إيجاد حقيقة ما. لكن لا يمكن أن نحترم مثل هذا المنهج إلا عندما نرجع تدريجيا القضايا المعقدة والغامضة إلى قضايا أبسط ثم نحاول بعد ذلك انطلاقا من عيان القضايا الأبسط الارتقاء إلى معرفة القضايا الأخرى كلها عبر الدرجات نفسها."[77] ما نلاحظه في هذه القاعدة أنها من دون شك هي قاعدة التقسيم والتنظيم ثم الانتقال من المعقد إلى البسيط ومن البسيط إلى المعقد وهكذا، حتى لا نسقط في الغموض وعدم الفهم. إن هذا باختصار الماهية الميتافزيقية للعلم الحديث، تلك التي عمل هايدغر على كشفها وإظهارها ضمن كتاب "قواعد لهداية العقل" الديكارتي.

75 هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء، مرجع سابق، ص: 143.

76 نفس المرجع.

77 نفس المرجع، ص: 144.

خاتمة

ما يمكن أن نصل إليه، بعد هذا العرض الموسّع للماهية الميتافزيقية للعلم الحديث، التي عرضها هايدغر من خلال إعادة قراءة المشروع الفلسفي لرونيه ديكارت؛ أنه يركز في هذه القراءة على مجموعة من العناصر التي يمكن استخلاصها بسهولة، وإن كانت تتجلى في قراءته بشكل ضمني؛ وهي أولًا أن العلم مهما حاول تعريف نفسه أنه مناقض للميتافزيقا، فإنه ليس إلا شكلًا من الميتافزيقا. ثم في المقام الثاني، لطالما كانت الفلسفة الديكارتية تعرّف نفسها على أنها قطيعة مع القرون الوسطى، فإنها تتبنى مشروعًا ميتافزيقيًا لمعرفة الكينونة، لا يقل عمَا تمارسه الثيولوجيا حين تدّعي معرفتها الكلية بكينونة الكائن، بما هي أساس للميتافزيقا (الأنطوثيولوجيا). وفي سياق آخر، إذا كان هايدغر لا ينتقد ديكارت هنا صراحة في هذه المحاضرة المبكرة التي يناقش فيها "العقل المحض" عند كانط، فإنه يتبنى نقدًا مبطّنًا لمشروعه الفلسفي؛ الذي حجب "التفكير الأساس" في الكينونة من خلال مصادرتها رياضيًا عبر يقين "الذاتية" المطلقة، ثم من خلال وضع مجموعة من القواعد الموجِّهة للعقل؛ علمًا أن العقل في حد ذاته، حسب هايدغر، هو مفهوم ميتافزيقي مبني على تأويل منطقي للوغوس. وبالتالي، وجب اجتثاثه من التفكير الغربي، لأنه مشيدٌ على أساس التعريف الأرسطي للإنسان أنه "حيوان عاقل"، وهذا التعريف يخفي، في الحقيقة، الجذور الأصلية الغارقة للوغوس هيراقليطس.

لائحة المصادر والمراجع بالعربية

- هايدغر، مارتن، السؤال عن الشيء: حول نظرية المبادئ الترنسندنتالية عند كنت، ترجمة إسماعيل المصدق، مراجعة موسى وهبة، المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى: بيروت، تشرين الأول (أكتوبر) (2012).
- ديكارت، رونيه، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة وتقديم سفيان سعد الله، دار سراس للنشر (2001).
- ديكارت، رونيه، تأملات ميتافزيقية، ترجمة الدكتور كمال الحاج، منشورات عويدات، الطبعة الرابعة، بيروت (باريس) (1988).
- أمزيل، حاتم، مجلة الحرية، العدد 10، إدارة النشر والتحرير محمد الهلالي، مطابع الرباط نت، خريف 2022.

لائحة المصادر والمراجع بالفرنسية والإنجليزية

- Heidegger, Martin, Essais et conférences, traduit de l'Allemand par André Préau et préfacé par Jean Beaufret, Galimard.
- Heidegger, Martin, DASEIN ET ÊTRE-VRAI SELON ARISTOTE (Interprétations d'Aristote, Éthique à Nicomaque, livre VI) (1924), p : 7-25.
- Heidegger, Martin, Duns Scotus's Doctrines of Categories and Meaning, translated by Joydeep Bagchee and Jeffrey D. Gower, Indiana University Press, (2022).
- Edmund Husserl, Méditations cartésiennes : introduction à la phénoménologie, traduit de L'Allemand par Mlle. Gabrielle Peiffer et Emanuel Levinas. Libraire philosophie. J. Vrin 6 place de Sorbonne (Ve) Paris (1966).